الأسواق التجارية
في عهد الدولة النورية
(٥٤١ — ٥٦٩هـ) (١١٤٦ - ١١٧٤م)

د. محمد مؤنس أحمد عوض

شهدت الدولة النورية (٥٤١ — ٥٦٩هـ) (١١٤٦ — ١١٧٤م) ازدهاراً تجارياً واضحاً سواء كان على مستوى التجارة الداخلية أو الخارجية، وذلك لتوافر قيام ذلك النشاط التجاري من خلال وجود مقومات الإنتاج الزراعي والصناعي، ووقوع بلاد الشام ضمن مناطق طرق التجارة الدولية القادمة من شرق ووسط آسيا والتي وصلت إلى الساحل الشرقي للبحر المتوسط، ومن الأمور الجديرة بالاهتمام إدراك أن النشاط التجاري في تلك الدولة وما جنته من وراء فرض المكوس على حركة القوافل التجارية، قد مدّ خزانتها بالأموال الطائلة التي مكنتها — على الأرجح — من مواصلة سياستها الخارجية الطموحة والمهيمنة.

ولا جدال في أن الأسواق التجارية لتلك الدولة قد عكست ذلك الازدهار التجاري، ومن ثم فمن الجدير بالدراسة تناول تلك الأسواق، إذ أن ذلك من شأنه أن يعيننا على فهم طبيعة تلك المرحلة من الناحية الاقتصادية وكذلك السياسية والاجتماعية أيضاً.

ومن أجل رسم صورة واضحة لتلك الأسواق التجارية تطلب الأمر الرجوع إلى المصادر التاريخية مثل كتب الحوليات العامة التي ربما وردت فيها بعض الشذرات المتناثرة هنا وهناك، وكذلك مؤلفات الرحالة المسلمين الذين قدموا لنا أوصافاً ذات دلالات هامة عن الظاهرة الحضارية في المدن الشامية وخاصة تلك التي كانت خاضعة لسيادة الدولة النورية وكذلك تواريخ المدن التي تركز الحديث على مدينة معينة من المدن الشامية وتعطي لنا صورة واضحة من خلال تناولها للمخطط — للأسواق التجارية وتوزيعاتها وأنواع السلع التي احتوتها ومدى تخصصها في بيع سلعة تجارية محددة. وفضلاً عن ذلك، هناك ما ألفه تجار شاميون عاصروا الدولة النورية ورسموا صورة هامة لأصناف التجار الذين اتخذوا من تلك الأسواق ميداناً لنشاطهم التجاري.

وبصفة عامة، وجدت في كافة أنحاء الدولة النورية العديد من الأسواق التي كانت محط نشاط اقتصادي واجتماعي وسياسي واسع النطاق من جانب الأهلين وإن غلبت عليها الصفة الاقتصادية بطبيعة الحال.

وقد توافرت عدة أنواع من الأسواق التجارية. فهناك المحلية والموسمية والسنوية (١)، ونجد النوع الأول في صورة الأسواق الأسبوعية مثل سوق الأحد الذي كان يعقد في مدينة دمشق (٢) وفق ما ذكره ابن عساكر، ومن أمثلة الأسواق الموسمية سوق موزرب عند حوران، وتقع موزرب على الطريق الرئيسي لقافلة الحج الشامي، ومن المحتمل أن السوق كانت تقام عند وصول القافلة القادمة من مكة، وقدم إلى هناك العديد من التجار العراقيين وربما اشتركت فيه عناصر من التجار الصليبيين (٣).

وشهدت الدولة النورية وجود العديد من الأسواق المتخصصة وكان لذلك فائدته، حيث حرص التجار على عدم المغالات في أسعار سلعهم نظراً لأن المشتري يستطيع المفاضلة بينهم ولأنهم تنافسوا معاً (٤)، ويلاحظ أنه ومع توزيع الأسواق وتباعدها بعضها عن البعض الآخر، صارت المدينة تموج بالحركة والنشاط التجاريين، لأن الراغب في شراء عدة أصناف من السلع كان عليه أن يقطع المدينة طولاً وعرضاً ومن الشمال إلى الجنوب

حيث أنه لا يوجد في السوق الواحد إلا سلعة واحدة (٥).

وإذا نظرنا إلى الأسواق المتخصصة في مدينة دمشق، فإننا بفضل ما ألفه ابن عساكر — المعاصر لعهد نور الدين محمود — يمكننا أن نلاحظ أنها احتوت على كافة السلع والبضائع الأساسية والكمالية والتي تهم العامة وكذلك العناصر الثرية ذات القدرة الشرائية المرتفعة، وعلى هذا النحو، فقد ازدهرت أسواق تجارية تخصصت في الأغنام(٦) والقمح(٧) والدقيق (٨) والمنتجات النحاسية (٩) والحدادة (١٠) والقناديل (١١) والفاكهة (١٢) والريحان (١٣) والطيور (١٤) والحبال (١٥) واللؤلؤ (١٦) والعلب (١٧) والسراجة (١٨) والقلانس (١٩) والغزل والخيوط(٢٠).

ومن الطبيعي أن نلاحظ أن الأسواق التي تخصصت في بيع السلع التي في متناول قدرات العامة الشرائية شهدت ازدحاماً واضحاً في مدينة كبيرة مثل دمشق ندرك من خلال المصادر أنها تزايدت في أعداد سكانها، بينما تلك التي تخصصت في السلع المترفة لم تكن تشهد تزايداً في المراكز الشرائية نظراً لطبيعتها المتخصصة.

ومن ناحية أخرى، لدينا أوصاف العديد من أسواق المدن الشامية. مثل حلب، وحمص، وحماه، ومعرة النعمان والباب. فقد امتازت حلب بأسواقها الحسنة (٢١)، واتسمت بأنها واسعة وكبيرة متصلة بصورة منتظمة ومستطيلة (٢٢)، أما حمص فقد كان لها العديد من الأسواق العامرة بالسلع (٢٣) وامتازت بأنها مبلطة (٢٤)، فسيحة الشوارع (٢٥)، أما حماة فقد قسمت إلى مدينتين، قسم علوي وآخر سفلي وازدهرت أسواق القسم العلوي وتفوقت على القسم السفلي، واحتوت على مختلف أنواع التجارات (٢٦)، وفي معرة النعمان وجدت الأسواق الزاخرة بالبضائع (٢٧)، أما الباب فكانت لها أسواقها الصغيرة على نحو يتناسب مع حجمها بوصفها بليدة صغيرة (٢٨)، من أعمال حلب بشمال الشام.

ويلاحظ أن من تلك الأسواق نجد الأنواع المسقوفة وذلك من أجل عرض السلع لأطول مدة ممكنة وحمايتها من الأمطار في الشتاء وحرارة شمس الصيف (٢٩)، ومن الأسواق الشامية الهامة والمسقوفة أسواق دمشق (٣٠)، وفي حلب وجدت أيضاً نفس الظاهرة(٣١).

وقد مكث التجار في هذه الأسواق يعرضون سلعهم ويبيعونها للمشترين، وكانت لهم عادات معينة في عملهم فغالباً ما يمكثون من الصباح حتى فترة ما بعد الظهر ثم

يستحضرون طعاماً للغداء أو يذهبون إلى مطاعم تقدم الطعام ويعودون إلى حوانيتهم من أجل مواصلة العمل حتى المساء (٣٢).

وقد استمرت الأسواق تفتح أبوابها إلا في حالات معينة، فعند حدوث الفوضى أو اضطراب الأمور في المدينة لأي عامل من العوامل كان التجار يسارعون إلى غلق حوانيتهم حتى لا تتعرض للسلب والنهب، كذلك في حالة وفاة أحد كبار معارفهم كانوا يغلقون حوانيتهم من أجل أن يسارعوا بالمشاركة في حضور مراسيم جنازته (٣٣).

ومن الجدير بالاهتمام دراسة أنواع التجار الذي تمركزوا في تلك الأسواق، ووفق ما ذكره أحد التجار المحنكين المعاصرين لعهد نورالدين محمود. فقد وجد هناك ثلاثة أنواع من التجار؛ الخزان ثم الركاض وأخيراً المجهز.

أما التاجر الخزان فيقوم بشراء السلعة في حينها جملة في وقت يكثر بائعوها ويقل الطالبون لها. ويتمكن من حفظها بأمان وينتظر فرصة مناسبة تندر فيها وينقطع وصولها ويكثر الطلب عليها (٢٤). ومنطقي أن هذا النوع من التجار احتاج إلى معرفة أحوال البضائع في أماكن انتاجها وبيعها وبلادها ومدى وفرتها أو ندرتها وأسعارها سواء ارتفعت أو انخفضت، ويمكن التعرف على ذلك من خلال سؤال القادمين من تلك البقاع (٣٥)، ويلاحظ أنه في حالة توقع انخفاض الأسعار كان على التاجر الخزان أن يقوم ببيع سلعته(٣٦) حتى لا تضيع عليه تلك الكميات الكبيرة التي خزنها.

وكان عليه أن يقوم بتجزئة شراء السلعة فلا يندفع مرة واحدة لشراء كميات كبيرة منها، دون روية بل يقسم ذلك إلى مراحل يفصل وقت بين كل مرحلة وأخرى، ففي خلال ذلك قد ترتفع الأسعار أو تنخفض، وفي كل من الحالتين يمكن أن يستفيد من ذلك (٣٧).

ويتوجب على الخزان أن يكون عارفاً بالأوضاع السياسية القائمة في البلاد التي يعمل بها ويمارس نشاطه التجاري الكبير من خلالها، ويدرك مدى ما عليه القيادة السياسية من قوة أو ضعف وينظم أوضاع تجارته على الوضع القائم (٣٨).

أما التاجر الركاض، فهو التاجر الذي يذهب إلى أماكن انتاج السلع ويجلبها، وينبغي أن تتوافر لديه جداول بأسعارها وكذلك بالمكوس التي تفرض عليها وهي تختلف من قطر إلى آخر وكذلك نسبة الفائدة على المنتجات التي يجلبها، وعليه الحذر في اختيار التجار

الذين يتعامل معهم خوفاً من أن يكون أحدهم من المفلسين فيؤدي ذلك إلى أوخم العواقب على تجارة التاجر الركاض (٣٩).

وبالنسبة للتاجر المجهز فينصب له في الموضع الذي يجهز إليه من يقبض البضائع التي يصدرها إليه ويتولى القابض عملية بيعها وينبغي أن يكون ذو ثقة وخبرة كبيرة في أمور التجارة ويخصص له جانب من الربح، وعليه ألاّ ينفذ البضائع إلا مع تجار يثق بهم ويطمئن إلى أنهم يعملون على حفظها إلى أن يسلموها إلى التاجر المطلوب (٤٠).

وإلى جانب أولئك التجار، احتوت الأسواق التجارية الشامية على السماسرة أو الدلالين (٤١)، وهم الذين كانوا يدللون على السلع من أجل جلب العملاء لشرائها، ويبدو أن الكذب كان ملازماً لهم في عملهم (٤٢)، ووجد منهم من يعمل على وصف السلع وجودتها من أجل ترغيب العملاء بشرائها أو يتحدث عن ندرتها أو قلتها وأنه لم يبع منها في الأسواق إلا هذا القدر الذي يريد بيعه أو أن يوضح أن سعر السلعة سيرتفع أو أن يرغب المشتري بأن هناك من سيحضر للشراء ويدفع جزءاً من الثمن لاحتجازها (٤٣).

ويلاحظ أن الأسواق الشامية في عهد الدولة النورية قد شهدت وجود الاحتكار التجاري (٤٤) لإحدى السلع أو بعضها، وقد شجع على ذلك توافر رأسمال ضخم مكن التاجر من القيام به والتاجر المحتكر الذي عمل على خزن السلع انتظاراً لرفع أسعارها تحقيقاً لأكبر قدر من الأرباح (٤٥)، وفي هذه الحالة فإن خزنها قد يطول وقد يقصر وفق وضع السوق نفسه (٤٦)، وقد أشارت المصادر إلى وجود تجار احتكروا المتاجرة مع قطاعات معينة مثل التاجرين اللذين احتكرا المتاجرة مع الكيان الصليبي وهما نصر بن قوام وأبو الدر ياقوت مولى العطافي وقد وصفهما ابن جبير بأنهما رجلين من موسري التجار وكبرائهم وأغنيائهم المنغمسين في الثراء وذكر أن تجارتهما كلها بهذا الساحل الافرنجي ولا ذكر فيه لسواهما وهما الأمناء من المقارضين فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما، وشأنهما في الغنى كبير (٤٨). ويلاحظ أن المحتسب عمل على أن يواجه ظاهرة الاحتكار بأن يرغم التاجر على بيع سلعته، لكن مثل أولئك التجار الأثرياء لم يعدموا الوسيلة التي تساعدهم على مواصلة المكاسب المادية الضخمة، وقد حموا تجارتهم عن طريق الاتصال بكبار رجال الدولة من المسلمين والصليبيين على حد سواء، إذ يذكر نفس الرحالة عن التاجرين السابقين أن قدرهما عند أمراء المسلمين والافرنجيين خطير (٤٩).

ويلاحظ أن الأسواق في عهد تلك الدولة نشطت من خلال الطابع التجاري العام الذي عرفت به عدة مدن في بلاد الشام خلال عهد نورالدين محمود، وكذلك، من خلال وجود أسر معينة اشتغلت بالنشاط التجاري وجنت بالتالي ثروات ضخمة.

لقد غلبت الصفة التجارية على عدد من المدن الشامية حينذاك، على نحو أكدته المصادر العربية واللاتينية على حد سواء، فأهل حلب مثلاً عرفوا بالنشاط التجاري الواسع النطاق واكتسبوا خبرة في «تثمير الأموال» (٥٠)، أما شيزر، فإن وليم الصورى يقرر أن أهلها غالباً ما يجعلون اهتمامهم بصورة كاملة موجهاً للتجارة (٥١)، أما الأسر التجارية فنجد من أمثلتها أسرة الرحبي، الذي عاصر نورالدين محمود، فقد ترك أولاداً «لهم اشتغال جيد في هذا الفن (٥٢)، كذلك وجدت في مدينة حلب «بيوتات قديمة معروفة بالثروة ويتوارثونها» (٥٣) وهناك أسرة تجارية أخرى عرفت في شيزر وهي أسرة أبناء عياض حيث عمل أخَوان منهما بالتجارة هما مظفر ومالك بن عياض «وهما تاجران يسافران إلى بغداد وغيرها من البلاد» . (٥٤) وبديهي أن تلك الأسر امتلك أفرادها رؤوس أموال كبيرة مكنتهم من أن يقوموا بدور كبير في الأسواق التجارية في عهد الدولة النورية ويدلنا على ذلك أن الرحبي رزق من التجارة مالاً جماً(٥٥) وترك تاجرا آخر ميراثاً لابنه بلغ عشرين ألفاً من الدنانير (٥٦).

ومن الممكن أن نقدم مثالين من أمثلة الأسواق التجارية في عهد الدولة النورية، من خلال سوق العطارين وسوق الوراقين، ومن الملاحظ أن من التجار الذين ازدهرت تجارتهم حينذاك أولئك الذين عملوا في سوق العطارين (٥٧)، وفي دمشق مثلاً وجدت حوانيتهم عند المسجد الأموي حيث كانت منتظمة عند دهليز الباب الغربي (٥٨)، وقد باعوا العقاقير (٥٩) والأخشاب والنباتات البرية وغيرها من صنوف العطارة مثل البابونج والحلبة والشيح والكراوية والجنزبيل والكزبرة والكمون والقرنفل وغيرها (٦٠)، وقد قام العطارون بتقديم الوصفات الطبية للعامة (٦١) وربحوا من وراء ذلك أرباحاً وفيرة، وقد حدث في عام ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م أن انتشر أحد الأمراض ومن أعراضه الحمى والسعال وشمل قطاعات كبيرة من السكان حيث انتشر في الشيوخ والشباب والأطفال (٦٢)، واندفع الناس إلى دكاكين العطارين «لتحصيل المغلي» (٦٣)، ويذكر ابن القلانس أن أحد العطارين قد باع في يوم واحد ثلاثمائة وثمانين صنفاً (٦٤)، على نحو يوضح ازدهار تلك

التجارة وسوقها بحيث إنها شملت ذلك العدد الضخم من أصناف العطارة المتخصصة.

أما سوق الوراقين فقد ازدهر هو الآخر من خلال المراكز العلمية النشطة التي شهدتها البلاد من كثرة المدارس والعلماء وطلاب العلم، وقد اختص ببيع الأوراق (٦٥) والأقلام والمداد، وكذلك الكتب القديمة، وقد ظهرت مثل هذه الدكاكين في بداية الدولة العباسية وانتشرت من بعد ذلك في مختلف بلدان العالم الإسلامي (٦٦)، ومن أكبر أسواقها ما وجد في مدينة دمشق (٦٧) وكانت سوقاً لتجارة الورق الذي عرف لدى الأوربيين بالصحائف الدمشقية (٦٨) Charta Damascema وأجود أنواعه ذات اللون الصافي الناعم الملمس والثقيل الوزن (٦٩)، واحتوى سوق الوراقين على العديد من العناصر المشتغلة بالكتابة مثل النساخ والمصححين وسائر الكتبة وعاقدي الأنكحة (٧٠).

ويلاحظ أن الحصول على الكتب القديمة يأتي من خلال عدة مصادر مثل النساخ وهم أساس تمويل سوق الكتب والورثة الذين باعوا خلاصة عقول أسلافهم نتيجة عدم إدراك قيمتها العلمية أو للافادة المادية من بيعها والكتب المنهوبة وكتب المديونين والمفلسين(٧١).

وقد تعرضت الأسواق التجارية في عهد الدولة النورية إلى العديد من الأخطار، ومن أمثلتها ما نجم عن عمليات السلب والنهب والحرائق؛ في خلال أحداث هجوم نورالدين محمود على دمشق عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، نهب الناس سوق علي (٧٢) وغيره من الأسواق ويشير ابن القلانس المؤرخ الرسمي في نظرة استعلاء طبقي إلى الموقف قائلاً: تسرع قوم من الرعاع والأوباش إلى سوق علي وغيره فعاثوا ونهبوا (٧٣).

ومن ناحية أخرى، تسبب اهمال أحد الصناع في إشعال حريق ضخم بسوق اللبادين في عام ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م في مدينة دمشق، وقد استمر عدة أيام واحترقت خلاله العديد من المباني والمتاجر (٧٤)، كذلك شب حريق ضخم في الأسواق التي جاورت جامع حلب في عام ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م (٧٥)، وقد أدى وقوع هذه الحرائق إلى خسائر لعدم توافر وسائل ميسرة للاطفاء ولوجود كميات كبيرة من الأخشاب دخلت في صنع الحوانيت وفي تسقيف الأسواق على نحو جعل النيران تلتهم المتاجر والسلع مسببة للأسواق وتجارها خسائر فادحة.

أما أسعار السلع في الأسواق التجارية في عهد الدولة النورية فإنها تأثرت بصورة جلية

بالأوضاع السياسية ومدى استقرارها أو اضطرابها، وكذلك توقف الأمطار عن الهطول.

وقد ارتفعت الأسعار في الأسواق الدمشقية أثناء حصار نورالدين محمود لها في عام ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م (٧٦) وقد أدى ذلك إلى عدم وصول التجار بما تحتاجه المدينة من الغلال وغيرها من السلع نظراً لتوقف الطرق التجارية (٧٧) وقد بلغ سعر الحنطة خمسة وعشرين ديناراً أو أكثر (٧٨)، الأمر الذي أدى إلى وفاة الكثيرين (٧٩) ولكي ندرك مدى الارتفاع الكبير في معدل الأسعار حينذاك، نذكر أن الأسعار في العام الأول لتولي نورالدين محمود الحكم بعد مقتل عماد الدين زنكي كانت منخفضة، فسعر الحنطة المكوك ونصف بدينار واحد (٨٠) والشعير مكوكان ونصف بدينار واحد، وقد استمر الوضع السابق في عام ٥٤٦هـ/ ١١٥٤م حيث ظلت الأسعار مرتفعة (٨١).

أما تأثير توقف سقوط الأمطار فقد أدى إلى ارتفاع الأسعار بصورة واضحة في الأسواق التجارية، نظراً لاعتماد قسم من المزروعات على الأمطار في ريها، وقد انحبست الأمطار في عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م فارتفعت الأسعار ولكن بعد سقوطها عادت إلى معدلها المعتاد (٨٢).

أما سياسة الدولة النورية تجاه الأسواق فيمكن ملاحظتها من خلال عدة اتجاهات، فهي قد اتجهت نحو الاهتمام بالأسواق بصفة عامة، ثم عملت على إخضاعها لرقابة المحتسبين وأحياناً عملت على إلغاء المكوس التي فرضتها على أنواع السلع التي تتم المتاجرة بها.

ونظرا لإدراك الدولة لأهمية الأسواق ودورها في حياة الناس والحركة التجارية لذا وجدناها قد اهتمت بها فعملت على توسيعها (٨٣)، ونجد ذلك بالنسبة لأسواق دمشق (٨٤) وحلب (٨٥) حيث عملت على إعادة عمارة أسواق المدينة الأخيرة (٨٦)، وبالطبع فإن هذا الاهتمام نالته أيضاً أسواق المدن الشامية الأخرى على الأرجح.

ومن جهة أخرى تمثلت سياسة الدولة تجاه الأسواق التجارية من خلال المحتسب (٨٧) ودوره، ووظيفته في الأصل قامت على أساس ديني ارتكز على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٨٨)، واتخذ منصبه أهمية اقتصادية واضحة، إذ أنه مثل عنصر التدخل الحكومي في ممارسة الأفراد لنشاطهم التجاري وقد اهتم بمراقبة الموازين والمكاييل وكذلك حالات الغش التجاري، وكان من حقه القيام بالتشهير بالمخالفين وتعزيرهم (٨٩).

أما سياستها تجاه الأسواق من حيث إلغاء بعض المكوس فقد دلت بصورة كبيرة على اهتمامها بازدهار الحركة التجارية فيها ، ومن أوضح الأمثلة الدالة على ذلك ما دلنا عليه نقش باب الشاغور بمدينة دمشق والذي يرجع إلى عام ٥٥١هـ/ ١١٥٦م (٩٠)، ووفق ذلك النقش فقد تم إلغاء حق التسفير على التجار المسافرين إلى العراق والعائدين منه إلى دمشق، وتكرر الإلغاء بالنسبة للمكوس في أعوام ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م (٩١)م و ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م (٩٢) و٥٦٣هـ/ ١١٦٧م (٩٣) و٥٦٦هـ/ ١١٧٠م (٩٤) و٥٦٧هـ/ ١١٧١م (٩٥)، وتجدر الإشارة إلى أن مقدار ما ألغي من مكوس في العام الأخير قد بلغ ٥٨٦,٤٦٠ ديناراً (٩٦) أي ما يعادل نصف مليون دينار.

وإذا كانت سياسة الدولة النورية قد اتجهت بصفة عامة إلى الاهتمام بالأسواق التجارية على نحو ضمن لها الانتعاش، فإن ازدهارها تزايد خلال طبيعة المرحلة التاريخية نفسها ونعني بذلك مرحلة الحروب الصليبية على مدى القرنين (٧٧٦هـ/ ١٢ ، ١٣م)، ويقرر الباحثون أن تجارة الشرق الأدنى — بصفة عامة خلال تلك الرحلة قد شهدت نهضة تجارية لم تكن موجودة من قبل (٩٧)، ودفعتها دفعة كبرى إلى الأمام (٩٨)، وقد تاجرت الدولة النورية مع العديد من القوى التجارية في عالم البحر المتوسط، فهناك الامبراطورية البيزنطية والمدن التجارية الايطالية مثل جنوة وبيزا والبندقية (٩) وتمكن الايطاليون على وجه الخصوص من زيادة حجم تجارتهم مع بلاد الشام وصار لهم القناصل التجاريون في المدن التجارية على نحو خاص، ومن ناحية أخرى، اتجهت الدولة النورية إلى المتاجرة مع الكيان الصليبي في صورة مملكة بيت المقدس نفسها وإمارتي أنطاكية وطرابلس، إذ أن المدن الشامية التجارية التي لا تقع على الساحل الشرقي للبحر المتوسط حرصت أشد الحرص على أن يكون لها منافذ بحرية من أجل تصدير سلعها إلى عالم البحر المتوسط، ولذلك كانت صيدا ميناء دمشق (١٠٠)، أما حماة وحمص فكان منفذهما على البحر متمثلاً في طرابلس (١٠١)، على الساحل اللبناني وهي مدينة عرفت بكثرة صادراتها ووارداتها (١٠٢)، أما حلب فكان منفذها البحري وجد في صورة ميناء الاسكندرونة (١٠٣) وكذلك ميناء جبلة (١٠٤)، وحيث أن كافة تلك الموانىء، الساحلية خضعت للسيادة السياسية الصليبية، فإن الدولة النورية اضطرت إلى المتاجرة مع الكيان الصليبي — على الرغم من استعار العداء على المستويات السياسية والعسكرية — وذلك من أجل دعم

اقتصادياتها، ولا جدال أن المتاجرة مع الأعداء ساهمت بدورها في النهضة التجارية التي شهدتها المنطقة في عصر الحروب الصليبية على نحو أدى بدوره إلى ازدهار النشاط التجاري في أسواق تلك الدولة.

ذلك عرض للأسواق التجارية في خلال عهد المرحلة النورية (٥٤١ — ٥٦٩هـ/١١٤٦ — ١١٧٤م).

● ● ●

الهوامش

(١) نعيم زكي، طرق التجارة الدولية، ص ٢٨١.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، م (٢) ص ٧٠، ص ١٠٩.

(٣) هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ص ١٨٣.

(٤) نعيم زكي، المرجع السابق، ص ٢٨٢، حاشية (٣٦).

(٥) عاشور، بعض أضواء جديدة على ابن عساكر، ص ٢٣٢، خالد معاذ، دمشق في أيام ابن عساكر، ص ١٤٢، عبدالغني حسن، التجارة الإسلامية على مدى العصور، ص ٣١.

(٦) ابن عساكر، المصدر السابق، م (٢)، ص ١٨٠؛ ترجمة محمود بن زنكي، ص ١٣٧؛ سبط بن الجوزي. مرآة الزمان، جـ٨/ ص ١، ص ٣٠٦.
Elisseeff, Corporation de Damas, P. 75, Nur AL-Din, T.III, P. 869

(٧) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ص ٧٤، ص ١٣٨.

(٨) Elisseeff, Corporation, P. 74

(٩) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ص ١٣٧

(١٠) نفس المصدر، ص ١٦٣، وقد وجد سوق للحدادين في مدينة حلب بشمال الشام، عنه انظر: .Blochet, l'Histoire d, Alep de Kamal AL-Din, P. 25

(١١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ص ٦٦
Elisseeff, Corporation, P. 75

(١٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ص ١٢٩.

(١٣) نفس المصدر، ص ٢٤.

(١٤) نفس المصدر، ص ٦١.

(١٥) نفس المصدر، والصفحة.

(١٦) نفس المصدر، والصفحة.

(١٧) نفس المصدر، ص ٥٩.

(١٨) نفس المصدر، ص ٥٧ .

(١٩) نفس المصدر، والصفحة، اليسيف، الحياة الاقتصادية في دمشق، ص ٣٠٣ .

(٢٠) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ص ٦٨) .

(٢١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٧١ .

(٢٢) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٠٣ ؛ ابن بطوطة، الرحلة، ص ٧٠ ؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٤٩ ، نقولا زيادة الرحالة العرب، ص ٧٥ .

Sauvaget, Alep, Essai sur le development d'une grande ville, p. 119-121.

(٢٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، جـ ٤ ، ص ٣٧٤ ؛ ابن شاهين، المصدر السابق .

(٢٤) وصفي زكريا، جولة أثرية، ص ٣٤١ .

(٢٥) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ٦٥ .

(٢٦) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٠٧ .

(٢٧) ناصر خسرو، سفر نامة، ص ٤٠ .

(٢٨) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٦٦ .

(٢٩) نعمان قسطالي، الروضة الغناء، ص ١٠٠ .

(٣٠) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ٧٠ . خالد معاذ، المرجع السابق، ص ١٢٢

(٣١) نقولا زيادة، المرجع السابق، ص ٧٥ .

(٣٢) متز، الحضارة الإسلامية، جـ ٢ ، ص ٣٧٩ .

(٣٣) ابن العديم، بغية الطلب ــ القسم الخاص بتراجم السلاجقة، ص ٢٦٦ .

(٣٤) الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص ٧٠ .

(٣٥) نفس المصدر والصفحة .

(٣٦) نفس المصدر والصفحة .

(٣٧) نفس المصدر، ص ٧١ — ص ٧٢ .

(٣٨) نفس المصدر، ص ٧٣ .

(٣٩) نفس المصدر، ص ٧٣ — ص ٧٤ .

(٤٠) نفس المصدر، ص ٧٥ .

(٤١) نفس المصدر، ص ٦٤ .

(٤٢) نفس المصدر والصفحة .

(٤٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤٤) نفس المصدر، ص ٧٢ — ص ٧٣ ؛ ابن الأخوة، معالم الغربة، ص ١٢١ ؛ ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٥١ ، أنيس المقدسي، الدولة الأيوبية في رسائل ابن الأثير، ص ٣٢٧ .

(٤٥) الدمشقي، المصدر السابق، ص ٧٢ — ص ٧٣ .

(٤٦) نفس المصدر والصفحات .

(٤٧) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٥٣

(٤٨) نفس المصدر والصفحات .

(٤٩) نفس المصدر والصفحة

(٥٠) ياقوت معجم البلدان، جـ٧، ص ٢٨٦ .

(٥١) يقول "Their attention was devoted almost entirely to Trading"
انظر : William of tyre, Vol. II, P. 267

(٥٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢١٧ .

(٥٣) ياقوت المصدر السابق، ص ٢٨٦ .

(٥٤) اسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ١٨٢ .

(٥٥) ابن العبري، المصدر السابق، ص ٢١٧ .

(٥٦) ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص ٢٦ .

(٥٧) ابن القلانس، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣١٩؛ ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢١٨ .

(٥٨) نفسه، نفس المصدر، والصفحة .

(٥٩) ناصر خسرو، سفرنامة، ص ٤٩ .

(٦٠) ناصر حسين، النباتات الطبية عند العرب، ص ٧٦، ص ١٢٧ .

(٦١) ناصر خسرو، المصدر السابق، ص ٤٩ .

(٦٢) ابن القلانس، المصدر السابق، ص ٣١٩ .

(٦٣) نفس المصدر والصفحة .

(٦٤) نفس المصدر والصفحة .

(٦٥) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ٩٢، ميري قنوجي، مكتبات العراق، ص ٦١ . وعن التطور التاريخي لصناعة الورق انظر : أحمد الشامي، العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى، ص ١١٩، ريحي عليان، صناعة الورق في الحضارة الإسلامية، دراسة تاريخية، ص ٩—٢١، طه الحاجري، الورق والوراقة في الحضارة الإسلامية، ص ٦٣ — ص ٨٨، كوركيس عواد، الورق أو الكاغد، صناعته في العصور الإسلامية، ص ٤٠٩ — ص ٤٣٨ .

(٦٦) أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية، ص ٦٣ .

(٦٧) يحيى الساعاتي، ملامح من تاريخ تجارة الكتب في الإسلام، ص ٧١ .

(٦٨) عاشور، المدينة الإسلامية، ص ١٨٧ .

(٦٩) الدمشقي، المصدر السابق، ص ٤٤ .

(٧٠) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ٩٢؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٢٥٤ أحمد الحلبي، التربية و التعليم في الحضارة الإسلامية، ص ١٩٧ .

(٧١) يحيى الساعاتي، المرجع السابق، ص ٧١ ــ ص ٧٤ .

(٧٢) ابن القلانس، المصدر السابق، ص ٣٢٨ .

(٧٣) نفس المصدر والصفحة .

(٧٤) سبط بن الجوزي، المصدر السابق، ص ٢٧٠؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر، جـ٤، ص ١٧٧ .

(٧٥) ابن العديم، زبدة الحلبي، جـ٢، ص ٣٣٠ .

(٧٦) ابن القلانس، المصدر السابق، ص ٣٢٥ .

(٧٧) نفس المصدر والصفحة .

(٧٨) نفس المصدر والصفحة .

(٧٩) نفس المصدر والصفحة.

(٨٠) ابن العديم، زبدة الحلبي، جـ٢. ص ٣٤١ ويجد أمين صالح المكوك على أنه يساوي قد حين عن ذلك انظر: أمين صالح. النظام المالي والاقتصادي في الإسلام، ص ١٩٥.

(٨١) ابن القلانس، المصدر السابق، ص ٣٢٧.

(٨٢) نفس المصدر والصفحة.

(٨٣) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٢، ص ٢٧٨.

(٨٤) ابن عساكر، ترجمة محمود بن زنكي، ص ١٣٧.

(٨٥) ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ص ١٦.

(٨٦) ابن العديم، زبدة الحلبي، جـ٢، ص ٣٣٠.

(٨٧) عن شروط هذه الوظيفة انظر: ابن الأخوة، المصدر السابق، ص ٥١ — ص ٦٠.

(٨٨) نفس المصدر، ص ٥١.

(٨٩) عنه في عهد نورالدين بن محمود انظر:

Ellisseef, Nur QL=Din, t. II,827-830

(٩٠) يقول نص النقش:

«. . . إزالة حق التسفير على التجار المسافرين إلى العراق والقافلين منها إلى دمشق حرسها الله وتعفيه رسمه وإبطال اسمه والمنع من تناوله والمكاتبة بشيء منه إحساناً إلى الرعية ورأفة ومنا منهم وعاطفة وتقرباً إلى الله تعالى. . .»

عن نقش باب الشاغور.

Compe, Wiet, Sauvaget,
Repertoire chrononlogie d'epigraphie
Arabe, T. IX, P. 10
Wiet, Notes d'epigraphie Syro-Musulman, P.164.
Van Berchem, Inscriptions Arabes de Syrie, P/ 453 - 454

محمد مؤنس عوض، سياسة نورالدين محمود الخارجية، ص ٤٦.

(٩١) ابن العديم، زبدة الحلبي، جـ٢. ص ٣٠٨.

(٩٢) نفس المصدر، ص ٣١٥.

(٩٣) نفس المصدر، ص ٣٢٥.

(٩٤) سبط بن الجوزي، المصدر السابق، جـ٨/ ق١، ص ٢٨٢؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ١٤٧؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، جـ٣، ص ٢٢١.

(٩٥) ابن العديم، زبدة الحلبي، جـ٢، ص ٣٣٤.

(٩٦) نفس المصدر والصفحة، الذهبي، دول الإسلام، جـ٢، ص ٨٣.

(٩٧) هايد، المرجع السابق، ص ١٩١.

(٩٨) كولتون، عالم العصور الوسطى ص ٢١٢

(٩٩) نقولا زيادة «سوريا زمن الصليبيين، ص ٢٠، جوزيف نسيم، علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية في ضوء وثائق صبح الأعشى، ص ١٢٣.

(١٠٠) ابن شاهين، المصدر السابق، ص ٤٧.

(١٠١) هايد، المرجع السابق، ص ١٨١ — ص ١٨٢ .
(١٠٢) الادريسي، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٧٢ .
(١٠٣) هايد، المرجع السابق، ص ١٨١ .
(١٠٤) نفس المرجع والصفحة .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية :

— ابن الأخوة	معالم القربة في أحكام الحسب تحقيق محمد سبان وصديق عيسى ط . القاهرة ١٩٧٦م .
— ابن بطوطة	الرحلة المسماة تحفة النظار ط . بيروت ١٩٦٤م .
— ابن الجبير	الرحلة المسماة تذكرة بالأخبار في اتفاقيات الأسفار ط . بيروت ١٩٦٨م .
— ابن حوقل	صورة الأرض تحقيق دي جويه ط . لندن ١٩٣٨م .
— ابن خلدون	المقدمة ط . القاهرة ب ـ ت
—ابن شاهين	زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بول راثيس ، ط . باريس ١٨٩٤م .

ابن العبري	تاريخ الدول، ط. بيروت ب ــ ت.
ابن العديم	زبدة الحلبي في تاريخ حلب جـ ٢. تحقيق سامي الدهان، ط. دمشق ١٩٥٤م. بغية الطلب في تاريخ حلب القسم الخاص بتراجم السلاجقة تحقيق علي سويم، ط. الجمعية التاريخية التركية أنقرة ١٩٧٦م.
ابن عساكر	تاريخ مدينة دمشق، ٣ (٢)، تحقيق صلاح الدين المنجد ط. دمشق ١٩٥١م. ترجمة محمود بن زنكي، تحقيق نيكيتا اليسيف في مجلة الدراسات الشرقية م (٢٥) لعام ١٩٧٢م BEO, T. XXV, Année 1972.
ابن العماد الحنبلي	شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط. القاهرة ١٣٥١هـ
ابن قاضي شهبة	الكواكب الدرية في السيرة النورية تحقيق محمود زايد،

	ط . بيروت ١٩٧١م .
ابن القلانس	ذيل تاريخ دمشق . تحقيق اميدروثر، ط . بيروت ١٩٠٨م .
ابن كثير	البداية والنهاية، جـ ١٢ ، ط . القاهرة ١٩٣٢م .
أبو الفداء	تقويم البلدان، تحقيق رينو ودي سلان ط . باريس ١٨٤٠م .
الادريسي	نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق، جـ ٤ ، تحقيق جابر يللي وديلا فيلا ط . نابولي ١٩٧٠م .
أسامة بن منقذ	الاعتبار، تحقيق فليب حتي، ط . بيروت ١٩٨١م .
الدمشقي	الاشارة إلى محاسن التجارة، تحقيق الشوربجي ط . الاسكندرية ١٩٧٧م .
الذهبي	العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد سعيد ط . الكويت ١٩٦٠م .

الذهبي
دول الاسلام،
تحقيق شلتوت ومصطفى إبراهيم
ط . القاهرة ١٩٧٤م.

سبط بن الجوزي
مرآة الزمان، جـ(٨)، ن(١)
ط . حيدر آباد الدكن ١٩٥١م.

الصفدي
تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق
من الخلفاء والملوك والنواب،
تحقيق صلاح الدين المنجد،
ط . دمشق ١٩٥٥م.

ناصر خسرو
سفر نامة،
تحقيق يحيى الخشاب
ط . القاهرة ١٩٤٥م،
ط . الرياض

ياقوت الحمدي
معجم البلدان،
جـ٧، ط . بيروت ١٩٥٥م.

ثانياً : المراجع العربية والمعربة.

آدم متز
الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، جـ٢،
ت . عبدالهادي أبو ريدة
ط . القاهرة ١٩٥٧م.

أحمد الحلبي (د.) التربية والتعليم في الضارة الإسلامية،
ضمن دراسات عربية وإسلامية
ط. بغداد ١٩٨٢م.

أحمد الشامي (د.) العلاقات التجارية بين دول الخليج
وبلدان الشرق الأقصى،
مجلة المؤرخ العربي، العدد (٢) لعام ١٩٨٠م.

أحمد شلبي (د.) تاريخ التربية الإسلامية،
ط. القهرة ١٩٦٦م.

أمين صالح (د.) النظام المالي والاقتصادي في الإسلام
ط. القاهرة ١٩٨٤م

أنيس القدسي (د.) «الدولة الأيوبية في رسائل ابن الأثير»
مجلة الأبحاث الجامعة الأمريكية بيروت، السنة
(١٨) ج (٣)، جـ (٤) سبتمبر ١٩٦٥م.

جوزيف نسيم (د.) «علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية على
ضوء وثائق صبح الأعشى»
ضمن كتاب القلقشندي وكتابه صبح الأعشى،
ط. القاهرة ١٩٧٣م.

خالد معاذ «دمشق في أيام ابن عساكر»
ضمن الكتاب التذكاري الخاص بابن عساكر،
ط. دمشق ١٩٧٩م.

ربحي عليان «صناعة الورق في الحضارة الإسلامية دراسة تاريخية»
مجلة راسة المكتبة، ٣ (١٦)
العدد (١) عمّان ١٩٨١م.

سعيد عاشور (د.) المدينة الإسلامية وأثرها على الحضارة الأوروبية،
ط. القاهرة ١٩٦٣م.

«بعض أضواء جديدة على ابن عساكر»
ضمن الكتاب التذكاري الخاص بابن عساكر،
ط. دمشق ١٩٧٩م.

طه الحاجري «الورق والوراقة في الحضارة الإسلامية»
مجلة المجمع العلمي العراقي،
م (١٣) بغداد ١٩٦٦م

عبدالغني حسن (د.) التجارة الإسلامية على مر العصور
ضمن كتاب معرض الأدب والتاريخ
ط. القاهرة

كوركيس عواد «الورق أو الكاغد»، مجلة المجمع العلمي العربي
٣(٢٣)
دمشق ١٩٤٨م

كولتون عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة،
ت. جزيف نسيم يوسف،
ط. الاسكندرية ١٩٦٤م.

مؤنس عوض (د.)	سياسة نورالدين محمود الخارجية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب ـ جامعة عين شمس، لعام ١٩٨٨م.
ميري قنوجي	مكتبات العراق، ط. بغداد، ١٩٨٢م.
ناصر حسين (د.)	النباتات الطبية عند العرب، ط. بغداد ١٩٨٤م.
نعمان قسطالي	الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ط. دمشق
نعيم زكي (د.)	طرق التجارة الدولية أواخر العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٧٣م.
نقولا زيادة	الرحالة العرب، ط. القاهرة ١٩٥٦م. «سوريا زمن الصليبيين» المقتطف، جـ(١) م (٨٧) لعام ١٩٣٥م.
نيكيتا اليسيف	«الحياة الاقتصادية في دمشق» ضمن الكتاب التذكاري عن ابن عساكر ط. دمشق ١٩٧٩م.

هايد تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى
ط، ت. محمد رضا،
ط. القاهرة ١٩٨٦م.

وصفي زكريا جولة أثرية في البلاد الشامية
ط. دمشق

يحيى ساعاتي (د.) «ملامح من تاريخ تجارة الكتب في مجلة العصور، م(١) يناير ١٩٨٦م.

ثالثاً : المصادر اللاتينية :

Willia, of Tyre, History of The deeds. done beyoud The sea, Trans. by Bebcok and

رابعاً المراجع الأجنبية : .Kerry-

Blochet, "l'Histoire d'Alep de Kamal AL-Din", R.O.L., T.VI, Année 1898.
Compe, Wiet, Sauvaget, Repertoire chronologie d'epigraphie Arabe, T. IX, le Caire
Elisseeff, Nur AL-Din, T, III, Da,as 1967.
Corporation du Da,as sous Nur AL-Dib, materiaux ôut une Topographie economique de Damas "Au XII siecle
R.E.A., III, Année 1956.
Sauvaget, Alep, Essai sur le development d'une gra,de ville, Paris.

Wiet, "Notes d'epigraphie Syro-,usulmane" Syria, T. VI, Paris Année 1925.